



شعبان سنة ١٣٢٢

غرائب الغرب

الرحيل من دمشق إلى لبنان

١

كان من أعظم أمني النفس منذ بضع سنين أن أرحل إلى أوروبا رحلة عنية أقضي فيها راحة من الدهر لتوفر علي دراسة حضارة الغرب في منبتها واستطلاع طبع المعاهد التي نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المزهرون والعنقاء العامينون والساسة المستعمرون والقادة الغازون والتجار والصناع والزراع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهبولاها.

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن إتمامه وتحول دون البغية المنشودة إلى أن قدر الله فأقام والي سورية السابق تلك القضية المنفقة على جريدة القيس واحتال انتقاماً لنفسه لأفعال المطبعة وتوقيف الجريدة والجنة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان

وقت الرحلة في طلب العلم نضرغ لتحقيق ما في الخاطر ريثما يتبين الحق من الباطل من العاقل وعسى أن تكرموا شيئاً وهو خير لكم.

في المزيغ الأخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧) ركبنا من دمشق عربية مع صديقين عزيزين قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات إلى أن وصلت فرسي ووصل صديق لي راكباً فرسه فركبنا وعاد ذاك الحبيبان إلى المدينة. وكان بدأ في تلك الساعة الإشراق في الأفق والسكون لم يبرح مستحوذاً على الأرباض والرياض ولم تكن نسبع من بعيد غير قعقعة أجراس الطحانين والمكارين وصياح الديكة أو عواء الكلاب وما كدت أعلم من مطيحي حتى ترامى إليّ سمعي صوت مؤذن القابون ينادي هلنوا إلى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله فقلت كلمة منق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جمل جينة تقال ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد.

التفت إلى الغوطة الدمشقية الثغاة أخيرة وهي أحب بقعة إلى قلبي في الأرض وقد كثر في أفقها شفق الفجر فذكرت طرفاً من أيامها البيض والسود. ذكرت الغوطة الخيوبة وذكرت مطاعم البشر وانحطاط أخلاقهم وعقولهم فقاد ذلك إلى التفكير في شقاء الإنسان بالإنسان وموت بعض حياة كل وانقار مئات لا غناء أفراد وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعيب فريق لراحة أمة فتشغل لي عجيب صنع المولى في خلقه سبحانه لا يبقى العالم عني حال هو المعز المذل القابض الباسط المغني للمفقر يقنب الأرض ومن عليها ولا يرثها إلا عباده الصالحون.

سارت بنا مطيتانا فاجتزنا قرية برزة ومعربا ولم تشرق الشمس إلا وقد قطعنا أراضي
معربا وأشرفنا على أكامها فالتفتنا إلى ما وراءها وقد تحلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج
من خلف الجبال فألقينا عليها نظرة الوداع وأغذذنا السير إلى بسية ومنها إلى دير مقرن
فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر.

ولم أشهد هذا الوادي وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاماً شيئاً من التغير
والارتفاع الخسوس فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة إن سلمت أشجاره من
لفحات الجنيذ يرتاش تلك السنة ويعتاش برمانه وجوزده وتفاحه وكشراه وتينه وعنبه
والا فيضطر في الأكثر إلى الاستدانة على الموسم المقبل وإن كان على شيء من القوة
والجند يرحل إلى بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر
الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الخنطة في كنه وكونه.

نودلك لأن هذا الوادي منذ قرية دمر حتى سوق وادي بردى لا يغل من الحبوب ما يسد
عوز سكانه بعض السنة لغلبة اليوسة على جروده وجباله ولأن أكثر تربته صخرية تحتاج
لعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة لتأتي أكلها. أما الأشجار وبعض الخضر
والبقول التي يتفع بها الفلاح هنا فالفضل لنهر بردى في إروائها يأخذ من مائه في مجار
يعليها بقدر حاجته أو أكثر.

ولقد أخذت أثاث الفواكه تأتي بأرباح أكثر من السنين السابقة خصوصاً منذ استشار
السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت - دمشق - حوران وسكة دمشق - حيفا - المدينة
وسكة دمشق - حلب - بيرة - حنك . (البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر إلى الجهات القاصية

وكانوا يقدمون أكثرهما في سبي الخير علفاً للدواب أو يلقيونها في الطريق لأن العطلة في نقلها من محنها إلى دمشق أو بيروت مثلاً على الدواب لا تقوم بأجرة المكار ودابته.

نعم لم أر ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادي بردى وأني يتم له ارتقاء وليس له طريق يسلك غير ما حفرته أقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته السيول والرياح منذ قرون. فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها في هذا الوادي ولعل ذلك ناشيء من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لأقضية بعيدة أما الآن بعد أن غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات فقد بات يرحى بفضل قائم مقامه الغيور أن تنظم لأهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليجمر للناس الغدو والرواح من أيسر السبل. وما أحوال ذلك معترداً على الحاكم إذا حث أهل كل قرية أن يقيموا بأنفسهم لتجهيز طريقهم أيام انقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها أو يعملونها بواسطة الموظفين الأمناء وإن كانت هذه الطريقة لا تخنو من محذور لأنها تؤدي إلى السخرة والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسي. وتجهيز الطرق وبث الأمن من جهة الفروض العينية على كل حكومة.

وبعد فإنه لا وجود في وادي بردى لساكني المرافق التي يستع بها الفلاح في البلاد المتسدة وذلك لأن الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهتد بها من الفلاح إلا أن تأخذ منه لا أن تقي له سبل الأخذ. فكان قصارها تكثير الجباية وتوفير الضرائب وأخذ من تريده للخدمة العسكرية أما أمتاع الأهليين بالوسائل الحصية وتعليبهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل الواصلات ورفع علم الأمن وتعليبهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت

أموراً لا تعرفها لا في وادي بردى فقط بل في جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها.

ومن أغرب ما رأيت في وادي بردى أن بعض قراها تحفر القبور لموتها أما الدور فترى حي الأحياء مع حي الأموات وما أدري هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من أن تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها إذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو يضع خطوات أو أنهم يؤثرون دفن الموتى أما أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الإنسان إلى دار البقاء ويترددوا في دار الفناء فلا يهتدون بأسباب الهناء والصفاء.

ومما عنت به البنوى في الفلاحين أنك ترى القاذورات أيضاً تعبي العيون وتخلق الأنفاس فترى روث البهائم وغائط الآدميين وسط الدور وخنفها وقدامها وعن أيمانها وشمالها. ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسنون بالتسلسل عن آباؤهم وشيء من جودة الهواء في الجمنة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الإقليم ومن حوله.

ركبت صيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردى ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيما مضى لنبيع والشراء على العادة في أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحبير. ولهذه الأسواق أمثال في أوروبا. وبالقرب من السوق تصق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه إلى مفتح وادي الزبداني. وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القسم والآكام.

ومن السوق انتهى بنا نفس السير إلى قرية عيت الفخار من أعمال البقاع العزيز وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنابير خاصة وتبيعه في المدن الداخلة من أعمال دمشق.

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطلعنا على عيتا ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في أكثر بيوت سورية.

وعلمنا أن سبب ما شاهدناه من جهال المساكن في عيتا تلك الأموال التي جنبها بعض سكانها من هجرهم إلى أميركا وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالكفى ثانية في عيتا أن يظهروا غناهم بإنشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها إن الغني طويل الذيل مياس أو الأثر المشهور إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وليس كاليوت تم عن يسار وتدل على سعة. وبعد عيتا مررنا بكامد النوز فجب جنين قللا فبعول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالعريض وفي المعارض مندوحة عن الكذب.

وقد سرت إلى هذه القرية وإلى جميع قرى البقاع عدوى المهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ومن حديث كثير من البقاعيين تبين أن أهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر إقنياً خاصاً لهم يتزلونه أو مكنة يوجهون وجهتهم إليها فيقصد مثلاً أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي أميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرون يتزلون كندا وغيرهم أستراليا وفريق السيفال فكان عدوى الانتقال تسري إليهم بالعشرة فلا يحب المواطن إلا أن يقند مواطنه في مآتبه

ومنازعه بل في شقائه وسعادته. وقد اذكرنا هذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون يتولون بلد كذا واليمانيون إقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الأندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد يتولونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن ذلك في الولايات المتحدة.

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجسرهما المخرب المستد على نهر الليطاني وانجبدنا قاصدين حزين أول حدود لبنان إلى الجنوب. ومشغرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة إلى الآن بدبغ الجنود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر والمسافة بين مشغرة من أعمال ولاية سورية وحزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعنق قمة عالية ثم تنحدر في واد عميق.

ومع أن قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته الخصب تربته وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومتاخته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبت أرض البقاع من الحبوب والثمار ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولاً نموذجية حقيقية وصرفوا عليها الأموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالأراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تغنايل - مع كل هذا العمران المتبحر وما تأخذه النافعة من أموال الأهليين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقاً مسلوكاً اللهم إلا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشئ خط بيروت الحديدي. وقيل لنا أن الحكومة صح عزمها مؤخراً على إنشاء طريق

عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشجرة في غربه وأن الطريق وصل أو كاد إلى قرية عيتيت ولعله جسماً لا اسماً كأكثر الطرق التي أنشأها النافعة في الولايات فكانت لفظاً بلا معنى واسماً بلا معنى لم ينشأ عنها إلا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الأوطان.

وصف لبنان الطبيعي

٢

كنت في لبنان أشبه بأبي زيد السروجي أو أبي الفتح الألكندري احتاج إلى رواية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروي كل منها لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطرت إلى الظهور فيها لاجئ من محالب عدو مآزق أو جاسوس مخادع وليتبر لي درس حالة البلاد بدون حجاب.

فقد قيل اكنم ذهابك ومذهبك وذهبك ولكن القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الأذكياء فتجدهم يحرسون كل الحرص على استطلاع طبع كل مصطاف بينهم أو سائح في جبالهم والوقوف على مقصده ومبلغ ثروته والدين الذي يدين به. وربما كان سواهم عن الأخير قبل كل شيء لأن عامتهم متدينون جداً فهم يسرون إذا شعروا أنهم يتعارفون إلى رجل يشاكلهم في المعتقد. وأني لمن قضى عليه شدة إخلاصه في خدمة وطنه ودولته أن يصرح لهم بهويته وهو مشرد طريد محكوم عليه بالجناية حكماً قره قوشياً!

ودعني رفيقي غداة وصلنا إلى جزين وعاد إلى الفيحاء وبقيت وحدي لا ريق لي إلا كتابي وفرنسي. فانقلب لساعتي من جزين قاصداً دير القنر فاجتزت إليها تاتر وعماطور والمختارة وغيرها والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغابة تمشي فيه وسط